لون السعادة الحقيقي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تقديم

مرحبا بكم جميعًا في هذا اللقاء الذي نسأل الله -عز وجل- أن يجعله لقاءً مباركًا، وأن تحفنا الملائكة، وأن يذكرنا الله -عز وجل- فيمن عنده.

هذا اللقاء بهذا العنوان يحمل سرًّا من الأسرار التي لا بد لأهل الإيمان أن يكونوا في عزة بسبب هذا السر -إن شاء الله- ما ننتهي من اللقاء إلا وتنكشف أسرار هذه الكلمة العظيمة.

عنوان اللقاء -كما هو واضح- **"صِبْغَة"**، وهذه الرسالة التي بعد العنوان: "لَوْنُ السَّعَادَةِ الحَقِيقِيِّ" سيكون أمرًا -إن شاء الله- نصل إليه في آخر النقاش.

ما دلالة ورود لفظة (صبغة) في سياق الآيات؟

سنبدأ أولًا بمعرفة أين وردت هذه الكلمة:

يقول الله -عز وجل-: (صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ)[1].

وردت في القرآن مرةً واحدةً، في هذا السياق في قوله تعالى: (**صِبْغَةَ اللَّهِ**) وهنا تجد خصوصية لهذه الكلمة كونها أُضيفت إلى الله، وأيّ شيء يُضاف إلى الله سيكون له شأن خاص، سيكون له شأن التعظيم والتفخيم.

لم يكن هذا فقط ما يدل على أن هذه الكلمة عظيمة -التي سنفهم معناها إن شاء الله- وإنما عُطف على ذلك أن رب العالمين قال لنا: (**ومَن أحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً**):

- فجاء التفضيل الأول والتفخيم الأول والتعظيم الأول لـ(صبغة الله) في كونها أُضيفت إلى الله.
- وجاء الأمر الثاني الذي زاد (الصبغة) تعظيمًا هو كون أن رب العالمين سألنا هذا السؤال التقريري: (**ومَن أحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً**).

وسنرى هذه الكلمة ستكون في فؤاد من؟ خُتمت الآية بقوله تعالى: (**ونَحْنُ لَهُ عابِدُونَ**) فمن المؤكد هنا سيكون

---

[1] () سورة البقرة: 136.

العارفين بصبغة الله هم المتكلمون الذين سيقولون: **(ونحْنُ لَهُ عابِدُونَ)** ويتبين لنا -إن شاء الله- بمزيد مناقشة.

ما العلاقة بين الهداية والقرارات؟

لنبدأ بسياق الآية في سورة البقرة -وهو سياق معروف- إن أردتم النظر إلى الآيات في مصحفك حتى تزداد بيانًا.

هنا السياق يبدأ من الآية (136):

يقول الله -عز وجل-: **(قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)**[2].

ولكن انظر الآية (135) التي قبلها، ماذا يقول الله -عز وجل-؟:

(وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[3]

أول شيء هناك دعوة **(وقالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا)** هذا أول السياق، الناس يتنازعون الخيرية والهداية،

---

[2] () سورة البقرة: ١٣٥.

[3] () أخرجه مسلم (770).

كل فئة تقول بأنها هي المهتدية، ولذلك رب العالمين أخبرنا بهذا الخبر لمصلحة وفائدة مهمة (**وقالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا**) الجواب: (**بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفًا وما كانَ مِنَ المُشْرِكِينَ**).

جاء الكلام علينا نحن: أنتم يا أهل الإيمان قولوا كما في الآية.

سأعود للآية السابقة التي قبل هذه الآية ونحدد أمرًا مهمًّا حتى تتصوروا (الصبغة)، هم الآن على ماذا يتنازعون؟ (**وقالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصارى**) ماذا يحصل (**تَهْتَدُوا**) المنازعة حول ماذا؟ منازعة الناس كلهم، وكل العالم يتنازعون ماذا؟ الهداية!

ولكن ماذا يعني الهداية؟

مشاركة/ الناس يتنازعون الخيرية

مشاركة/ أنهم الأحسن!

مشاركة/ أنهم على منهج الحق!

مشاركة/ أنهم على الصراط المستقيم!

مشاركة/ أنهم الأقرب إلى الله!

مشاركة/ أنهم الأفضل! أنهم القدوة!

مشاركة/ أن تصرفاتهم سليمة!

مشاركة/ قراراتهم سليمة! أنهم مرجعية!

فأكثر شيء يتنازعونه في الهداية هي القرارات؛ لان القرارات إما أن تكون صائبةً وصاحبها مهتدٍ فيها ومن ثم يجد خيرًا في حياته، وإما أن تكون قراراته باطلة فيجد أثر هذه القرارات، فلما قالوا: **(وقالُوا كُونُوا هُودًا أوْ نَصارى تَهْتَدُوا)** يعني إذا سرتم على هذا الطريق ستكون قراراتكم وتصرفاتكم وانفعالاتكم صائبةً صحيحةً!

!أكثر شيء يتنازعونه في الهداية هي القرارات

وهذا الشيء نحن دائمًا ما نعيشه ونفكر فيه ونحتار إن كان تصرفنا هذا سليم أم هو ليس سليم! إن سلامة القرارات شأن يشترك فيه جميع الناس، ودائمًا ما يشغلهم إن كانت قراراتهم سليمةً أم ليست بسليمة!

وهذا هو المعنى العميق لمعنى (الهداية) هل أنا أسير سيرًا صحيحًا في طريق مصالحي؟! أم أن قراراتي ستجني علي؟! وانظر هذا على جميع المستويات صغيرةً كانت أو كبيرة، مثال شاب يأتي باحثًا عن زوجة له، وقد وضع لها مواصفات محددة، فنقول له بأن هذه المواصفات إنما هي قرار غير سليم لأنها مثلا لن تكون مناسبةً لتربية أبنائك، لكنه يُصرّ على رأيه ويطلب هذه المواصفات ويأتي بهذه المواصفات ثم

بعدها يحصل الفشل! الإشكال هنا يكون نابعًا من قراراته هو، لم يهتدي إلى القرار السليم، وهذه بنت في سن مناسب للزواج وكلما تقدم لها عريس يخطبها ترفضه وهي تجد في نفسها أنها تأخذ قرارات سليمة، لكن بعدها يأتي الندم! كلنا يحيط بنا هذا الشأن الذي هو شأن الاهتداء في القرارات، واليوم المسألة أصبحت صعبةً في أقل الأشياء مع الاختيارات الكثيرة في كل شيء حتى أنك عندما تريد أن تشرب كأس قهوة يأتونك بقائمة تضم اختيارات عديدة مطلوب منك الاختيار بينها، وبعد أن تختار وتدفع نقودك وتتعب من الانتظار ثم تشربها لتكتشف بأنها غير جيدة!

إن مسألة الاختيار والقرار كلما زادت تعقيدًا، يعني تكون في مُخرج واحد، في موضوع واحد، في أمر واحد فهذا مسحوق الغسيل الذي نغسل به كنت في الزمن الأول ما عندك إلا هذا الخيار وليس هناك غيره، ثم أتوك بقائمة طويلة، هذا فيه كذا...! وهذا فيه كذا...! وهذا فيه كذا...! لدرجة تشعر فيها في أحيان كثيرة أنك تحتاج توكيل أحدهم يختار لك فنقول لأي أحد: اختر لي أنت! دفعًا لمسألة القرارات، وهذا من أكثر ما يُرهق الإنسان في حضارة اليوم!

في حضارة اليوم أكثر ما يُرهق الإنسان تعدد الخيارات، أما هذه الأشياء البسيطة والسهلة -كما ضربناها في الأمثلة- فهي فقط لتستطيع تصور مسألة القرار والاختيار كم أصبحت معقدةً!

لكن موضوعنا أعمق من هذا وأبعد، ولا بد أن تتصور كيف أن الناس ينازعونك في كل الاتجاهات ليبينوا لك أن سيرك وراء أسلوبهم في التفكير هو الصواب.

نعود إلى الآية (**وقالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا**) فكأنه يقول لك لو فكرت مثل هؤلاء أو مثل هؤلاء ستصل إلى مرادك.

ولو فكرنا في الدنيا، ماذا يريد الإنسان في الدنيا سواء كان مسلمًا أو كافرًا، كل الناس في الدنيا ماذا يريدون؟ يريدون السعادة! فهناك طرق كثيرة تختطف الناس، وتختطف تفكيرهم، وتقول لهم من هنا طريق السعادة! وهذا هو ما سنفكر فيه الآن:

(**كُونُوا هُودًا أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا**) تهتدوا إلى الصواب، تهتدوا إلى السعادة، تهتدوا إلى ما تريدون، تهتدوا إلى الحياة المستقرة (**كُونُوا هُودًا أَوْ نَصارى**) ليحصل ما تريدون!

وهنا ننبه ونؤكد على هذا التنبيه:

- (**تَهْتَدُوا**) هذه هي قضية الحياة!

- (**تَهْتَدُوا**) هذا هو الأمر الذي تريده أنت في كل حياتك أنك تأخذ قرارات سليمة!
- (**تَهْتَدُوا**) هذه هي التي يعمل عليها العاملون حولك في العالم من أجل أن ينازعوك ويرشدوك إلى طريقهم!
- (**تَهْتَدُوا**) هذه هي التي كان النبي -صلى الله عليه وسلم- في قيام الليل -وهو النبي الذي يُوحى إليه- كان يقوم الليل ويستفتح صلاة الليل بهذا الدعاء: «**أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيما كَانُوا فيه يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِما اخْتُلِفَ فيه مِنَ الحَقِّ بإِذْنِكَ؛ إِنَّكَ تَهْدِي مَن تَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[4].

لا تتصور أبدًا أن القرار السليم عوامله بسيطة بل إن القرار السليم في المسائل العظيمة عوامله عظيمة، ولكي تأخذ قرارًا سليمًا في الأمور المهمة فالمسألة ليست باليسيرة فإن هناك من ينازعك فيه!

ما العلاقة بين الهداية وحب العلو؟

---

[4] () سورة القصص: 79.

(**قالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا**) فلا تفكر بأننا تحت وَهْمِ نظرية المؤامرة، الناس من حولك ينازعونك اهتداءك، ينازعونك قرارك، يريدوا أن يقولوا لك بكل الألسنة الممكنة وبكل الأدوات الممكنة، فإذا كانت برامج فبالبرامج، وإذا كانت أمورًا ثقافيةً فعبر الثقافة، وإذا كانت تدريبًا فعبر التدريب، وإذا كان فضائية فعبر القنوات الفضائية، وإذا كانت بوسائل اتصال فعبر وسائل الاتصال، وكلهم يقولون لك: نحن المهتدون هلمّ إلينا!

لكن حسب رأيك ماذا سيستفيد هؤلاء؟! لماذا يقولون (**كُونُوا هُودًا أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا**) لِمَ لا تتركوننا في حال سبيلنا؟!

مشاركة/.....

لأن هناك كثيرون من الذين نأتي نقول لهم إن الناس ينازعوننا وكلٌ يرشدنا إلى طريقه على أن طريقه هو الصواب، فيقولون لنا: ومن أنتم حتى ينازعكم الآخرون؟! أنتم أصلًا ترتيبكم ضمن دول العالم الثالث فماذا يريدوا منكم؟!

لكن رب العالمين قال لنا **-ونحن نصدق كلام رب العالمين ونكذب كلام الخلق-** ربنا قال إنهم سيأتون يقولون: (**كُونُوا هُودًا أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا**) فإذن هم ينازعوننا، لكن لماذا؟!

هناك شهوة أعظم حتى من شهوة المال ألا وهي: شهوة العلوّ!

قارون كان في زمانه من أغنى الناس ولم يستطع البقاء والاستمتاع في بيته(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)[5] لماذا؟ لأن هناك لذة أخرى! المال لذة، التمتع به لذة، فهذه كلها لذائذ، لكن أعلى اللذائذ هنا في هذا الموقف هي عندما **خرج** (عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ) فإن فيها متعة جديدة وهي رؤية العيون تتعلق به، وتشعر بعظمته؛ وهؤلاء عادةً ماذا يفعلون؟ كأنهم ينازعون رب العالمين في عظمته، يريدون أن يكونوا في حالة من العلوّ!

إذن لنتصور هذا الأمر تصورًا سليمًا: الاهتداء إلى الطريق السليم في كل الحياة وفي مسألة السعادة من أهم المسائل، هذا الأمر الناس ينازعونك فيه، وكلّ منهم ينازعك لمصلحته لكن لا بد أن تعرف أن المصلحة الكبرى الواضحة التي ينازع الناس من أجلها هي مصلحة الْعُلُوِّ، وهي شهوة أعلى من شهوة المال!

---

[5]() مانيكير: (Manicure)، طلاء الأظافر، صباغة الأظافر.

تذكر وأنت تسير في طريق الحياة لا تحاول التجربة تكون النتيجة منها وقوعك أو سقوطك في أودية الهلاك! وهذا الكلام نقوله لأنفسنا -ونحن في سن الرشد- ونقوله أكثر لشبابنا الذين يلجون الحياة، فمثلا الشباب الذين ابتُلوا بشيء من استعمال المخدرات -الله يشفي مرضانا ومرضى المسلمين ويحفظ شبابنا جميعًا- عندما تسألهم عن سبب دخولهم هذه التجربة فإن الجواب غالبًا ما يكون أنه بحثًا عن السعادة أو أن أحدهم أوهَمهم أن هذا هو طريق السعادة!

وقس على المخدرات -هذه المصيبة الكبرى- قس عليها كل الأبواب التي يدخلها الناس إذ أن أحدهم قد أوهمهم أنهم لو دخلوا هذا الباب أو ذاك الباب سيكونون سعداء، ويبدأ الناس يمارسون حالات من الإدمان في هذه الممارسات أو في هذه الأمور على أن هذا باب من أبواب السعادة أو أنهم سيجدون السعادة في هذا الأمر؛ ولذلك تجد الناس يسيرون شوطًا من حياتهم وراء أحد المشاهير أو المؤثرين الذين بيّنوا لهم أن هذا طريق تصل به إلى السعادة ثم تمر الأيام والليالي -على حسب أمانة هؤلاء الذين أرشدوهم- تمر الأيام والليالي ليدفعوا ثمن استجابتهم لأحد لم يكونوا يعرفون مقدار مصداقيته!

المقصد من هذا الكلام أن الناس يتنازعون اختياراتك وقراراتك، وكل منهم يريد أن يكون هو قائدك؛ لمِا يجدون في ذلك من مشاعر العلوّ -حتى تفهم لماذا هم يفعلون هذا- وتُعتبر مشاعر العلوّ من أعلى المشاعر التي تأتي في نفس الإنسان، بل هي أعلى من الاستمتاع بالمال!

رب العالمين أرشدنا ماذا نقول، هم قالوا: **(كُونُوا هُودًا أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا)**، رب العالمين قال لنا: **(بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)** فكأن الجواب هنا أتى إجمالًا -سنؤجل مناقشة هذه الإجابة الى آخر النقاش إن شاء الله-.

ما العلاقة بين (صبغة الله) والطمأنينة؟

لننظر إلى السياق، ماذا يقول لنا رب العلمين في هذه الآيات إلى أن نصل إلى (**صِبْغَةَ اللَّهِ**) هذه الكلمة التي هي موضوعنا، بماذا يأمرنا ربنا أن نقول؟: (**قُولُوا**) يعني قولوا هذا القول بألسنتكم وبقلوبكم، ماذا تقولون؟: (**آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا**) ثم يأتي الخبر عن كل الأنبياء على عقيدة أنهم كلهم يرشدونا لنفس الأمر، ما هو هذا الأمر؟ (**مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ**) التي أتت في الآيات السابقة.

إذا آمن هؤلاء الذين نحن نخاطبهم حصلت لهم الهداية، وإذا لم يؤمنوا فإن ربنا سيكفينا إياهم.

سنجمع بين كلمتين: بين كلمة (صبغة) وكلمة (طمأنينة). نصل إلى مقصودنا:

هذا الإيمان الذي صُبغ به الوجدان هو طريقك للاطمئنان!

لنبدأ بمناقشة معنى كلمة (صبغة) هناك فرق بين كلمة (صبغة) وبين كلمة طلاء.

لنضرب مثالًا بسيطًا، الحناء ماذا يقابلها؟ ما يسمونه بالمانيكير[6]، هذاالمانيكير ماذا يُعتبر؟ هو طلاء، بدليل لأنك تستطيع القيام بتقشيره، وأما الحناء فإنها تُعتبر (صبغة)، لماذا؟ لأنها تدخل في أنسجة الجسم فينصبغ الجلد بلونها يعني يعطي أنسجة الجسم لونًا.

فهذا يساعدك على بداية الفهم لكلمة (صبغة)، الأفكار التي نحملها ونؤيدها نوعان:

1. صبغة
2. وطلاء.

الطلاء عادة ما يكون شيئًا تستطيع أن تتخلص منه وتخرج منه بسهولة، في مقابل أن (الصبغة) يطول زمانها!

نريد أن نعرف ما أثر هذا على تفكيرنا؟ فالأفكار نوعان: نوعٌ (صبغة)، ونوعٌ طلاء، بهذا تفهم أنه يمكن أن تتبني أحيانًا أفكارًا تكون بمثابة الطلاء الذي يغطي ما تحته لكن ما أن تمر بك تجارب إلا ويتقشر هذا الطلاء ويتشقق، وتشعر أثناء التجربة أن هذا ليس ثابتًا!

نتأمل (صبغة): هي نوع من الأمور مستقرة في فؤادك، مختلطة بوجدانك، تكاد تكون روحك مصبوغة بها، يعني هي (صبغة للروح).

---

[6]() تفسير الطبري، سورة البقرة الآية (138)، حديث رقم (٢١١٣).

يمكن أن يغطي هذه (الصبغة) أحيانا نتيجة ظروف معينة بعض الأفكار التي هي بمثابة الطلاء، لكن مع التجربة تذهب هذه!

وهذا نفس الكلام ينطبق على ما نحن بصدد قوله (**كُونُوا هُودًا أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا**) اعتبر اليهودية والنصرانية هنا أو الدعوة إليها فكرتان أيًّا كانت الفكرتان، نسوية، رأسمالية، إلخ... خذ أيّ فكرتين الناس يدعونك إليها، وأنت تقول: لا، أنا لن أتبع هذه الأفكار وإنما روحي مصبوغة بصبغة متعارضة مع هذه الأفكار، أو قد يحصل لهذه (الصبغة) أن تختفي قليلًا نتيجة ضغط المجتمع وتكرار الأفكار، نتيجة دوران الناس في أوقات معينة حول فكرة محددة، فما الذي يحصل؟ الذي يحصل أن الإنسان قد يُطلى عليه بهذه الأفكار فيأخذها ويظنها سببًا للسعادة؛ لهذا تجد هذه قد تترك بيتها وأولادها واهتماماتها قائلة: أنا سأعيش لنفسي! ولا بد من إيجاد وقت لنفسي! ولا بد من كذا...! وكذا...! وتجنّح عاليًا مع المحلّقين تذهب إلى هنا وهناك...! ثم تبدأ تشعر بالإرهاق الشديد، تشعر في داخلها بإحساس بعدم الرضا ولا يقبل الاستقرار، فتأتي عندها هذه الأفكار التي أقَلّت برأسها عليها! تزول هذه الأفكار وإن كان في بداية الأمر قد تكون خديعة السعادة أو خديعة الاستقرار أو خديعة أيّ نوع من أنواع

الخداع يمكن أن يكون هو بداية الأمر أو هو الذي استطاع الناس أن يضغطوا عليها بهذا الكلام ثم ما تلبث الأمر إلا وينكشف!

فـ(**صِبْغَةَ اللَّهِ**) هي الحالة التي تعيشها الروح وهي ممتدة في الوجدان، لا يستطيع إنسان أن يقطعها عن الإنسان، لكن قد تطرأ أمور تمنع بقاء أثر هذه (الصبغة) على الإنسان.

(الصبغة) التي صبغ الله بها الناس إنما هي في أرواحهم، لا يستطيع أحد أن يقطعها أو يمنعها، لكن الناس يتغيرون! نعم، قد تطرأ مثل هذه الأمور على الإنسان ثم يستفيق ويخرج منها، لكن نحن نرى أناسًا يغرقون في كفرهم ويغرقون في كذا... وكذا... المهم في بداية الأمر يتضح معنى (صبغة) وهي عبارة عن لون للروح انصبغت بها من عند رب العالم -وسيتبين إن شاء الله- هذا الكلام.

قال قتادة: «**إنّ اليهود تصبغ أبناءها يهودَ، والنصارى تَصبغ أبناءَها نصارَى، وأن صبغة الله الإسلامُ، فلا صبغة أحسنُ من الإسلام، ولا أطهر**»[7]، وقال مجاهد: «**(صِبْغَةَ اللَّهِ): فطرةَ الله**»[8].

---

[7] () تفسير الطبري، سورة البقرة الآية (138)، حديث رقم (٢١٢٦).

[8] () المفردات للراغب الأصفهاني.

يحمل هذا الكلام جوابًا لما بدأناه: أنه إذا كانت (الصبغة) عبارةً عن لون يصبغ الله به الروح، فكيف إذن يمكن لأحدهم أن يُخرّج هذه الروح عن مسارها؟! الخطر يكمن في فترة الطفولة، فترة التلقين؛ ولذلك اليهود يصبغون أبناءهم يهوداً، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى!

ولكن هل هذا يعني أنه بالإمكان أن يكون للروح لونًا غير اللون الذي منحها إياه رب العالمين؟! الجواب: في مرحلة الطفولة يمكن للروح أن يحصل لها أو أن تُصبغ بصبغة غير (صبغة) رب العالمين، ولكن يمكن للإنسان أن يعود لأصله.

يقول الراغب الأصفهاني: «**(صِبْغَةَ اللَّهِ) إشارة إلى ما أوجده الله تعالى في الناس من العقل المتميز به عن البهائم كالفطرة وكانت النصارى إذا ولد لهم ولد غمسوه بعد السابع**» يعني بعد اليوم السابع «**في ماء عمودية يزعمون أن ذلك صبغة**»، يعني يعمّدونه -كما يعبرون هم- بتغطيسه في الماء على طريقتهم فقال تعالى على هذا: «**(ومَن أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً)**»[9]يعني هم يرون أن تعميدهم للطفل في الماء يُعطي الطفل لونًا لروحه، يعتقدون أن فعلهم هذا في البدن ينفعهم في الروح فتأخذ الروح فكر النصارى!

---

[9]() سورة البقرة: 136.

ما العلاقة بين (صبغة الله) والسعادة؟

نأتي لكلام الشيخ السعدي، فبعد أن سمعنا في الآية الأولى، رب العالمين قال لنا: (**قُولُوا آمَنَّا...**)[10]، ثم: (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا...)[11]، وبعد ذلك رب العالمين قال لنا: (**صِبْغَةَ اللَّهِ**)، لنرى معنى هذا.

يقول الشيخ السعدي: أي «**اِلْزَموا (صِبْغَةَ اللَّهِ)**»[12]، نفهم من كلامه أمرين:

- **الأمر الأول:** نفهم أن رب العالمين قد صبغ الأرواح بصبغة، لكن يمكن لهذه (الصبغة) أن تزول لو لم نلزمها!

إذن علينا أن نلزم (**صِبْغَةَ اللَّهِ**) التي هي لأرواحكم قد صبغها الله بها، فكيف يمكن لنا أن نلزمها؟ وماذا علينا أن نفعل بها؟! علينا أن نظهرها على أبداننا بمعنى أن من كان من أهل الإسلام فإن صبغته، صورته، حاله، حياته، أو قراراته، لا ينبغي أن تكون مشابهةً لمن ليس من أهل الإسلام؛ فأنت لك صبغة معينة، وعندما تختلف عن غيرك في الصورة

---

[10] () سورة البقرة: 137.

[11] () تفسير السعدي، سورة البقرة الآية (138).

[12] () صحيح البخاري (1904)، وأخرجه مسلم (١١٥١) باختلاف يسير.

الخارجية فإنما هذا نتيجة لأنك مصبوغ بصبغة مختلفة عن صبغتهم.

هذا جوهر الكلام إذَا كنت صاحب صبغة قد صبغك الله بها في باطنك، فمطلوب منك أن تلزمها، ما معنى تلزمها؟

أن الذي صُبغت به في باطنك ينبغي أن يظهر على جوارحك، لا أن نرى الوجوه متشابهةً ويصبح أهل الإسلام صورتهم الخارجية تشبه أهل الكفر، مثل أن تذهب إلى المطار فترى أولاد وبنات المسلمين لا فرق بينهم وبين غيرهم؛ فالصبغة الداخلية لم يحصل بها التزام، وبالتالي لم تظهر على الصورة الخارجية!

فلما يأتي أحدهم يقول: "أهم شيء باطننا!" نقول: نعم صحيح، أهم شيء هو باطننا لأن الباطن إذا صلُح؛ ظهرت آثاره على الظاهر، نعيد هذه (**صِبْغَةَ اللَّهِ**) الزمها، اجعلها في ظاهرك كما هي في وجدانك؛ فإذا حصل هذا فإنك ستذوق طعمًا للسعادة مختلفًا.

ولكن ما علاقة السعادة بهذا الكلام؟!

الأشياء التي تُدخِل السعادة على النفس إنما هي تلك التي تكون في أفئدتنا وفي أفكارنا مقترنةً بانشراح الصدر، فالسعادة تأتي من وراء الأفكار، فمثلًا لو شعرت بأن أمرًا إن

تحقق لك ستكون سعيدًا؛ فبمجرد تحققه -حتى ولو لم تلمسه أو تتأثر به وإنما لمجرد سماعك خبره- تحصل لك السعادة.

!إن السعادة تحصل نتيجة الأفكار

فالأفكار هي التي تجلب السعادة، بمعنى الإنسان إذا شعر أو فكر في أن سلامته في صحته وأن سلامة أولاده مَغنَمٌ؛ فإنه كلما فكر في هذا الأمر دخل إلى فؤاده السرور، لكن غالبًا ما دامت الأشياء عندنا وتحت أيدينا فإننا لا نفكر بأنها قد تجلب لنا السعادة، وإنما الإنسان غالبًا ما يفكر في غير الموجود ويتمنى وجوده، وإذا بُشّر به أو شعر باقتراب حصوله عليه؛ يدخل إلى فؤاده السعادة.

فالسعادة إنما هي موافقة لأفكارك، فإذا كانت أفكارك مصبوغة بصبغة الإيمان ستجد أنه مما يجلب السعادة إلى قلبك أنك قمت الليل، قرأت آيات من كتاب الله، حفظت سورةً من القرآن، أبناؤك حصل لهم كذا وكذا مما يزيدهم إيمانًا، استطعت أن تغلب نفسك وتُنفق من المال كذا وكذا، استطعت أن تكظم الغيظ، استطعت أن تصبر على الغير، استطعت أن تُحسن إلى من أساء إليك، تخطيت أمورًا كانت من الصعوبة بمكان أن تفعلها مع الآخرين أو مع نفسك، أقلعت عن ذنب

كنت تُذنبه، فإذَا كانت (صبغة الله) في الفؤاد قد حافظت عليها كما ينبغي؛ فإن السعادة ستأتي جرّاء موافقة هذه (الصبغة)؛ لأن السعادة وليدة أفكارك، وليست السعادة مجرد شيء وصلت إليه وأمسكته بيدك! فمثلًا كظم الغيض ليس شيئًا تمسك به في يدك وليس مالًا قد حصلت عليه، وإنما هو نجاحك في عدم الانفجار غاضبًا، كم مضى من عمرك وأنت تشعر بأن الغضب هو أزمتك، وأن هذا ليس من حقك، وتشعر بأن (صبغة الله) التي في روحك تأثّمك على سرعة غضبك! فإذَا كنت تسير على (صبغة الله) متى ستكون سعيداً؟! إذا نجحت في كظم غيضك!

وهذا أحدهم، المال مثلا له شأنه في فؤاده لما في طبعه من شح، يرى الناس ينفقون ويعطون في حين أنه هو شحيح، وفي فؤاده (صبغة الله) تقول له: "أنفق! أنفق!" فلما تصل إلى أن يوافق طبعك تَصَرُّفَكَ عندها ستكون النتيجة سعادتك.

ولذلك فإن سعادة الإنسان الموافق لصبغة الله سعادة مرتفعة عن الماديات مرتبطة بما يُسعد الروح التي هي آتية من السماء؛ سعادة الروح في إنجازات لكن من نوع آخر تمامًا، سعادة الروح في موافقتها للفطرة، موافقتها للأمر، موافقتها للسمو الإنساني.

فما علاقة (الصبغة) بالسعادة؟ أنت مصبوغ بصبغة تَرضى فيها المستحسن عندك -مثلًا- كظم الغيظ، الإحسان إلى الخلق، الصبر، هذه الأشياء الحسنة عندك قد صُبغت روحك بها، متى ستكون سعيدًا؟ إذَا استطعت أن توافق هذه (الصبغة)، فـ(الصبغة) كالميزان في الوجدان إذَا استطاع الإنسان أن يوافق هذه الفطرة وهذه (الصبغة) ويعمل ما يوافقها ويُرضيها؛ عندها سيشعر الإنسان بالسعادة.

لكن الأشياء المادية التي عادةً ما يسعد بها الناس وتكون في كثير من الأحيان سببًا للسعادة المادية لها ثلاث صفات، هي:

- **الصفة الأولى: أنّ لذّتها سريعة الزوال:** فقد تشتهي أكل شيء ما ولكن بمجرد توفره حتى أنك لا تذوق منه تنقطع الشهوة من تناوله والسعادة به!
- **الأمر الثاني: أنها ما تأتي إلّا منغصة:** فاللذائذ المادية لا بد أن يكون وراءها آلام كثيرةً في الحياة.
- **الأمر الثالث: أنّها تصاحبها الآلام أو المفاسد:** وهذه من الصفات المهمة للذائذ الدنيوية، فلا بد أن يكون في هذه اللذائذ من الآلام المصاحبة لها، فمثلًا الأكل نوع من أنواع السعادة، والشبع قد ينجر عنه آلام وانتفاخات وزيادة أو نقص في الوزن!

في مقابل أننا لو فهمنا (الصبغة) التي صبغنا ربنا عليها، وفهمنا أن النفس –الروح- التي بين جنبينا ربنا خلقها مصبوغة بحب المكارم، مصبوغة بحب المستحسنات، مصبوغة ببغض المستقبحات؛ ستدخل السعادة على الإنسان بمجرد كونه يوافق هذه المستحسنات ويبتعد عن هذه السيئات، فأنت لا تبعد بعيدًا لأجل أن تطرق باب السعادة، هذه الروح التي بين جنبيك فيها مستحسنات إذا فعلتها حصلت منها على السعادة، وفيها مستقبحات إذا ابتعدت عنها شعرت بارتياح النفس.

تصور لو أن إنسانًا باقي على فطرته، فهذه امرأة قد باقية على فطرتها وتعرضت لموقف يمكن لها أن تخون فيه الأمانة فتأخذ مثلًا مالًا أو تأخذ كذا، فلو أن (الصبغة) التي صُبغت بها روحها تكون قوية ووردت الفكرة في خاطرها بأن تمد يدها على هذا المال وتخون الأمانة كم ستشعر بانزعاج شديد طالما أن الفكرة وردت في ذهنها ولن تشعر بالسعادة إلا إذا امتنعت وزالت عنها الفكرة.

ولذلك فإن من أكثر المزعجات الشيطان الذي يوسوس للإنسان بسفاسف الأمور وأسافلها مما يسبب كدر الخاطر لأنك مصبوغ بصبغة الله، (صبغة الله) هذه تجعلك دائماً تحب السمو، دائماً تحب التصرفات العالية، فأنت مخلوق بصفة

تجعلك سعيداً إذا سموت، إذا حصل عندك حالة من السمو، وبالمقابل تجعلك في كدر من شأنك إذا تردّيت، أما السعادات الزائلة والسريعة، فهذه هي التي يحصل عليها الناس من أي مكان وبأي صورة يعني الإنسان المصبوغ بصبغة الله يرى أن تبقى كرامته محفوظة خير له من أن يحصل على مال كثير، والمرأةُ المصبوغة بصبغةِ اللهِ ترى أن عِرضَها محفوظٌ خيرٌ لها من أمورٍ قد يغرونها به ترى أن حفظَ عِرضِها أولى من هذا كله.

الآن يظهر لنا العلاقةُ بين (صبغةِ اللهِ) والسعادة، السعادةُ كامنةٌ في داخلك، عندك أمورٌ ربنا حَبَّبَها إليك بصبغته فخلقك مصبوغًا بحبِّ هذه الأمور، وأمركَ بهذه الأمور في كتابه، وعلى لسان رسوله -صلى الله عليه وسلم- متى قمت بممارَستها فإن روحُك المصبوغة بصبغةِ اللهِ دخلت عليها السعادة؛ وهذا ما يجعلُ (صبغةَ اللهِ) المضافة إلى الله هي سِرّ سعادةِ أهلِ الإيمان إذ أنهم يعرفون أن أرواحَهم التي بينَ جنبيهم التي هي سِرُّ الله تحمل أبوابَ السعادة ومفتاحَها أبواب السعادة هو: امتثال الأمر.

أولًا: قيامك بالأعمال يسبب لك السعادة:

إن جهلك بشأن روحك قد يجعلك تشعر بأن اللقمة والمال سيأتيان لك بالسعادة، لكن هذا من جهلك باحتياجات روحك!

رب العالمين قد صبغنا (**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً**) هذه (الصبغة) التي صبغنا بها رب العالمين مصالحها عظيمة قد ارتبطت السعادة بها، وفي كل مرة تفتح بابًا للطاعة تجد فيه السعادة، فقد تُكرم يتيمًا، أو تنفق على مسكين، أو ترعى محتاجًا، أو تفعل كذا وكذا، وكلما فعلت هذا فإنك تسعد من جهة، ومن جهة أخرى تعلو درجاتك عند رب العالمين.

!كل أبواب الأجور -في الحقيقة- إنما هي أبواب للسعادات

وانظروا إلى طاعة مثل طاعة الصيام -وهي من العبادات الخاصة بالإنسان- فهي ليست متعدية مثل كظم الغيظ والإحسان إلى الخلق وإنما هي خاصة بك أنت -نسأل الله أن يبلغنا رمضان ونحن في زيادة إيمان، ونسأله -سبحانه- أن يرفع عن المسلمين ما أصابهم- تصور كيف أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: «**لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ**»[13] فالصيام يدخل السعادة، ولكن كيف يدخل الصيام السعادة؟ أقول هذا المثال وأذكر لكم -بالمناسبة- أن هناك برامج علاج نفسية عند الأجانب يستخدمون فيها الصوم على أساس أنه أحد علاجات الاكتئاب، صومنا الشرعي الذي يُمتنع فيه عن كل شيء لمدة

---

[13] () تفسير السعدي، سورة البقرة الآية (138).

عدد ساعات معينة، لكن نحن ليس لنا علاقة بهذا الكلام، فكر كيف أن الصيام أحد أسباب السعادة؟ بدليل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ» يعني يدخل عليك السرور، أين يكمن السر؟ السر في النفس التي خلقها ربنا، النفس طالما الأشياء متوفرة لديها فإنها ما تشعر بقيمتها ولا تشعر بالسعادة عند تناولها، فلما يأتيك الأمر بأن تحبس نفسك عن الأكل طيلة هذه الساعات، فيصل الإنسان إلى شعور بالحاجة، فلما يؤذن له يدخل إلى قلبه السرور، وهذه -طبعًا- فرحته في الدنيا، وأما الفرحة الأخرى فكما ذكر أهل العلم تكون عند رب العالمين.

وقد ذُكر أن للصائم فرحتان: فرحة عند فطره يعني بعد انتهاء الشهر، وهذه لها معنى آخر فلماذا يفرح الإنسان لما ينتهي الشهر؟ هذه النفس تحب أن تنجز، فكأنه يُقال هذا في ميزانك إنجاز.

سنزيد توضيح مسألة كيف أن (الصبغة) تأتي بالسعادة لما قد يكون فيها من الغموض، ربنا صبغ هذه النفس بصبغة وجعل في النفس أسراراً، هذه الأسرار لو أنك اتبعت المأمور فإنك من خلال هذه الأسرار ستدخل إلى أبواب السعادة؛ لأن نفسك مصبوغة بحب المستحسنات، وببغض المستقبحات، وبحب الإنجازات، وبالشوق إلى لقاء العظماء، مصبوغة بمجموعة

صبغات، ربنا جعل كل الطاعات والعبادات والقربات -في حقيقتها- أسبابًا للسعادة، للصائم فرحتان هذا يُشعرك بالإنجاز، وعند تغلبك على وسواس الشيطان وائتمارك بأمر الرحمن وكيف أنك كنت أميناً فهذا يُشعرك بالسعادة لأنك أمين، حقيقة من باقي فيه (الصبغة) صافيةً فإنه بمجرد مرور خاطرة الشر على قلبه يتسبب له هذا في الكدر، فلما نفسه تقول له اسرق اغتاب فإن هذا يشعره بمشاعر الضيق.

فإذا فهمنا أن (الصبغة) التي خلقنا رب العالمين عليها هي التي تتسبب في سعادتنا، وأن هذه النفس التي بين جنبينا سر من الأسرار، نكاد نقول إن الناس قد طرقوا كل أبواب السعادة الدنيوية أكلوا.. وشربوا.. وصار عندهم أموال.. واجتمعوا.. وسافروا.. وذهبوا..، لكن في كل مرة يعودون فيها تكون أنفسهم كما هي؛ لأنه ما حصل إلا التلهي عن حاجات هذه النفس، فتبقى تصرخ في داخلك: "إنني في حالة من التألم"! ولا يُسكتها إلا أن تَسُدَّ حاجاتها بالأمر والنهي الموافق لما صبغك الله عليه.

بناءً على فهمنا لهذا، سنقرأ كلام الشيخ.

ثانيًا: قيامك بالعقائد يسبب لك السعادة:

يقول الشيخ السعدي: «**اِلْزَموا (صِبْغَةَ اللَّهِ)، وهو دينه، وقوموا به قيامًا تامًا، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات**»[14]، يعني إن تلزموا (صبغة الله) فإن (صبغة الله) هي دين الله، قوموا بدين الله قيامًا تامًا، الأعمال ظاهرةً كانت أو باطنةً، وأيضًا معكم العقائد، كلما حرصتم على عقائد صحيحة كنتم أسعد في حياتكم «**حتى يكون لكم صبغة، وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعًا واختيارًا ومحبةً، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية**»[15].

ضربنا في البداية أمثلة على الأعمال، وكيف أن قيامك بالأعمال يسبب لك السعادة، ولنضرب أمثلةً الآن على العقائد، الناس يستجيبون لتخويف الشيطان (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ)[16] فالشيطان يخوّفكم، ويسبب لكم بوساوسه الكثير من الأحزان، ولكن ما الحل؟ علينا أن نوافق (صبغة الله) في عقيدتنا.

---

[14]() تفسير السعدي، سورة البقرة الآية (138).
[15]() سورة البقرة: 268.
[16]() صحيح الترمذي (2516).

لنبحث في ثلاثة أشياء هي من أكثر ما يزعج الناس، وهي:

1- الخوف على الأرزاق،

2- والخوف على الصحة،

3- والخوف على الأبناء.

أ- الخوف على الأرزاق:

تصور كيف أن السعادة والطمأنينة ستدخلان علينا لو أننا اعتقدنا اعتقادات صحيحة.

ولنتذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- ماذا قال لابن عباس؟ قال له: «**احفَظِ اللَّهَ يحفَظكَ، احفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تجاهَكَ، إذا سألْتَ فاسألِ اللَّهَ، وإذا استعَنتَ فاستَعِن باللَّهِ، واعلَم أنَّ الأمَّةَ لو اجتَمعت علَى أن ينفَعوكَ بشَيءٍ لم يَنفعوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ لَكَ، ولو اجتَمَعوا على أن يضرُّوكَ بشَيءٍ لم يَضرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ عليكَ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحفُ**»[17].

لنتصور هذه العقيدة، يكون لديك عملك، مالك، تجارتك، هذه جميعها تُعتبر أخطارًا بالنسبة لك، فأولًا اطمئن «**لو**

---

[17]() سورة إبراهيم: 22.

اجتَمَعوا» جميعهم «**على أن يضرُّوكَ بشَيءٍ لم يَضرُّوكَ إلا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ عليكَ**» تَصوُّر الأرزاق بيد الله وأنه -سبحانه وتعالى- هو من يرد الشر عن أرزاقك؛ يورثك الطمأنينة، ويبعد عنك الخوف، ويورثك نوعًا من الاستقرار النفسي، فتجد نفسك أول ما تهجم عليك وساوس الشيطان الذي يعدك الفقر تفزع لعقيدتك في رب العالمين، وأن الله هو الرزاق، وأن الله دافع شر الخلق، وأنه -عز وجل- إذا أعطى لو اجتمع أهل الأرض على رده لم يستطيعوا.

فهذا كله يورثك الطمأنينة والسعادة، ويبعد عنك الخوف من الخلق على الرزق؛ لأن ذلك من أعظم ما يكدر حياة الإنسان، ويفقده أشياء كثيرة من راحة البال ومن كرامته أيضًا. فإذا انصبغت بصبغة الله، وعرفت أن الله هو مولاك، وكان هو ركنك الشديد، واطمأننت إليه؛ جاءتك السعادة راغمةً؛ لأنك عرفت من مولاك.

ب- الخوف على الصحة:

ومثلها الصحة، فالتخويف بالصحة هذه مؤامرة كبيرة في الحياة، الناس يخوفونك بأنك ستمرض إن حصل كذا وكذا من الأمور حولك، أو أحيانًا كثيرةً يقول لك: "أنت متعرض أكثر من غيرك لهذه الأمراض لأنها أمراض وراثية!" ونتعامل مع هذه الكلمات كأنها وحي منزل! أن طبيبًا يقول

لك: "إن هذه الأمراض يمكن أن ترثها من عائلتك!" فتصور كيف أن جميع المخاوف والوساوس تجتمع في الفؤاد وكأن هذا الكلام وحي منزل، في حين أن هذه من وساوس الشيطان يستعمل هذه الكلمات ويجعلها تدور في الفؤاد حتى تُفسد على الإنسان حياته! (صبغة الله)، أن تكون لديك هذه المعرفة الحقيقية اليقينية أنه حتى ولو حصل ومرضت فهو الذي يشفيني، وهو الحافظ لي «احفَظِ اللَّهَ يحفَظكَ» يحفظني من البلاء ومن الأمراض، كون أن الإنسان يؤمن بالله وعلى (صبغة الله) التي صبغه الله عليها؛ يعرف أن الله القوي بيده ملكوت السماوات والأرض وله الأمر، يعرف أنه لا يمكن أن يحصل في الأرض أمر لا يريده الله.

فأنت تَوَجَّه للملك العظيم، اركض إليه وتمسك بحبله، فكر بصورة تمنع وسواس الشيطان من التسلط عليك، إذ أن الشيطان لا يملك إلا الكلام (دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي)[18] في حين أنك أنت لديك (الصبغة) التي صبغك رب العالمين بها، وهي: ما تعتقده من الحق، وقد جاءك العلم فزدت هذه (الصبغة)، فرُدَّ على كلام الشيطان بكلام الرحمن!

---

[18] () تفسير السعدي، سورة البقرة الآية (138).

ج- الخوف على الأبناء:

ومثله الخوف على الأبناء «**احفَظِ اللَّهَ يحفَظكَ، احفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تجاهَكَ**» الله هو الحفيظ، مهما بذلنا جهودنا في حفظ أنفسنا أو حفظ أبنائنا فنحن ما لنا في ذلك إلا أن نتوكل على الله، ونعتمد عليه، ونطمئن إليه.

الخلاصة:

الشاهد من هذا الكلام، إن السعادة لا يمكن أن تأتي لفؤاد قد استعمره وسواس الشيطان، يخوِّفه على ماله، ولده، وصحته، فماذا علينا أن نفعل؟ ما لنا في هذا إلا أن نعود إلى ما صبغنا الله عليه، فنذكّر أنفسنا بالعقائد السليمة، ونذكّر أنفسنا بمعرفة رب العالمين، ونطمئن أنفسنا بتطمين معرفة الله بأسمائه وصفاته.

إن السعادة لا يمكن أن تأتي لفؤاد قد استعمره وسواس الشيطان!

فإذن علينا القيام بهذين العملين:

1- أن نلزم (صبغة الله) بالائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه.

2- أن نلزم (صبغة الله) بتجديد عقيدتنا في رب العالمين.

انظر آخر الكلام عند الشيخ السعدي ماذا يقول: «**وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم**» ماذا؟ «**السعادة الدنيوية والأخروية**»[19] إذن متى ما أتيتم إلى صبغة الدين وتعاملتم معها على أنها صبغتكم، أظهرتموها في حياتكم، تعاملتم بها، حصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية،

من أراد السعادة -حقًّا- ينبغي عليه أن لا يخالف (الصبغة) التي صبغه الله عليها.

نفسك تحب الخير وتكره الشر؛ فلا تفعل الشر وتبتعد عن الخير ثم بعدها تريد لنفسك أن تسعد! كذلك الطمأنينة، نفسك تحب الطمأنينة ولكنها تريد الاعتماد على القوي؛ فلا تعتمد على نفسك ثم تريد من نفسك أن تطمئن!

إذا انصبغتم بصبغة الله حصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية.

---

[19] () تحفة المودود بأحكام المولود، ابن القيم (ص: 186).

فكلام الشيخ السعدي أتى مبيّنًا العلاقة بين (صبغة الله) وبين السعادة، أنت مصبوغ بصبغة إذا ما خالفتها في عملك وفي عقيدتك؛ ستتشوش ويحصل لك ما يحصل من الاكتئاب والحزن والوساوس.. سير على (صبغة الله) ستكون لك السعادة -بإذن الله-.

ما العلاقة بين صبغة القلوب وصبغة الأبدان وبين السعادة؟

نرى كلامًا لابن القيم يزيدنا -إن شاء الله- بيانًا في هذه المسألة، يقول: «**صبغة الله هِيَ الحنيفية الَّتِي صبغت الْقُلُوب بمعرفته ومحبته وَالْإِخْلَاص لَهُ وعبادته وَحده لَا شريك لَهُ، وصبغت الْأَبدَان بخصال الْفطْرَة**»[20] وذكر خصال الفطرة.

في كلام ابن القيم (صبغة الله) عبارة عن ماذا؟ عبارة عن أمرين هما باختصار كالآتي:

أنت مصبوغ بصبغةٍ في الباطن، ومصبوغ كذلك بصبغةٍ في الظاهر؛ فلا تترك (صبغة الله) الباطنية ولا (صبغة الله) الظاهرية ثم تطلب لنفسك أن تستقر وتسعد!

---

[20] () سورة القصص: 7.

ولكن ما معنى أن أترك (صبغة الله) الباطنية التي في القلوب؟ لتستطيع الإجابة حاول أن تقرأ كلام ابن القيم في معنى صبغة القلوب، ثم قل خلافه.

تأمل مليًّا: «**صبغت الْقُلُوب بمعرفته ومحبته وَالْإِخْلَاص لَهُ وعبادته وَحده لَا شريك لَهُ**»:

- «**صبغت الْقُلُوب بمعرفته**»،
- وبعد ذلك «**محبته**»،
- ثم يأتي «**الْإِخْلَاص لَهُ**»
- و «**عبادته**» -سبحانه وتعالى-؛

فأنت مصبوغ على هذا.

وبالمقابل مضادة هذه (الصبغة) أنك ستجد نفسك تقضي الأيام والليالي في معرفة فلان وعلان وتَتَبُّع تفاصيل كذا وكذا وما إلى ذلك من الأشياء، في حين أنك ما عرفت الله؛ لذلك لا بد أن تأتي اللحظة التي تشعر فيها بالشقاء لأنك عرفت كل شيء وما عرفت الله، فنفسك مصبوغة مخلوقة على أنها محتاجة لمعرفة الله، متضح لكم أين الإشكال؟ نحن منذ البداية نحاول أن نجمع بين (الصبغة) والسعادة: أنت مصبوغ على (صبغة)، ولكن لما تبقى تخالفها طيلة حياتك فإن النتيجة ستكون دخولك في الشقاء! بينما إن أردت السعادة لنفسك ما عليك إلا أن توافق ما خُلقت عليه، وافق (الصبغة)

التي انصبغت بها، وافقها لأجل أن تجد في نفسك السعادة، نفسك محتاجة أن تعرف وليها، نفسك محتاجة أن تعرف القوي العزيز، نفسك محتاجة أن تعرف من له الأمر والنهي، نفسك محتاجة أن تعرف الذي له ملك السماوات والأرض، الذي يقول للشيء كن فيكون، الذي يقوم عليك، الذي يُجري أمورك، الذي يُدبرك، فالنفس محتاجة أن تعرف من الذي يدبرها؛ لأنها عندما لا تعرف من الذي يدبرها تبقى طوال الوقت محتارةً تسأل يمنةً ويسرةً، تكلم هذا، وتترجى هذا، وتخاف من هذا -وهذا أكيد- هو عين الشقاء!

فإذا حصلت المعرفة وأنت مصبوغ على أن هذه المعرفة تؤدي إلى المحبة، (مصبوغ على ذلك) يعني مخلوق على هذه الخلقة، أنه عندما تعرف كماله وجلاله وعظمته؛ لا بد أن يقع في قلبك محبته.

لا تطلب محبة الله بدون معرفته، فأنت مصبوغ على ذلك وستجد نفسك تحب رب العالمين، وبعدها ستمر عليك مواقف يتخلّى فيها الجميع عنك فلا يكون معك أحد، أو أنت في حال لا تستطيع أن تشتكي لأحد -أصلًا- بالحال التي تمر بها، لكن تجد من ألطاف الله ورعايته وحفظه وعنايته ما يجعلك تنطق -نُطقًا- بشكره وحمده وتشعر -شعورًا- بمحبته؛ فكم من مشاعر السعادة التي لا توصف في هذه اللحظة، ومِثل هذا

في الحياة مِثل ذوق الشهد إذَا ما ذقته تبقى على آثاره زمنا، ثم بعدها تمر عليك أحوال وأحوال لتعود مرةً أخرى لمثل هذا، ولينطق فؤادك مجدّدًا بقوله: "ما أعظمك يا رب العالمين! ما أرحمك يا رب العالمين! ما أقربك يا رب العالمين!" وتسمع فؤادك يهتف قائلًا: "كم أحب رب العالمين!"، وهذا لا يكون إلا بعد أن تعرف من هو الله، عندها ستنتقل إلى محبته عندما توافق (الصبغة) التي أنت مصبوغ عليها.

لكن تصور هذه الحاجة إلى المعرفة العظيمة التي في نفوسنا إذَا ما حَشَوْتَها بكلام فارغ عن معرفة الناس ومعرفة التاريخ وما إلى ذلك من هذه الأشياء التي رغم أهميتها إلا أنها ليست هي التي ينبغي أن تشغل بها كامل فكرك! بل إننا حتى عندما نقرأ قصص الأولين والآخرين ما نرى فيها إلا رب العالمين. انظر مثلًا عندما تسمع قصة موسى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)[21] ثم تقرأ في السياق كيف حصلت الأحداث؛ لتجد أنها كلها أفعال لله (**فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ**

---

[21]() سورة القصص: 13.

وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)[22] كل قصة تسمعها، كل حدث يمر عليك، كل تاريخ حقيقي للناس، إنما تقرأ فيه أفعال الله؛ لأجل أن تصل إلى المحبة. هذا الذي يحتاجه فؤادك حتى يكون سعيدًا وحتى يكون مطمئنًا: أن تعرف من هو الله.

كل قصة تسمعها، كل حدث يمر عليك، كل تاريخ حقيقي للناس، إنما تقرأ فيه أفعال الله؛ لأجل أن تصل إلى المحبة. هذا الذي يحتاجه فؤادك حتى يكون سعيدًا وحتى يكون مطمئنًا: أن تعرف من هو الله.

ثم يأتي الشيء الطبيعي، وذلك بعد أن تتعرف على ربك، ويقع في قلبك محبته وتعظيمه، فإنه من الطبيعي أنك ستقف بين يديه تسأله وتعبده وترجوه؛ وهذه نتائج طبيعية أنت مصبوغ بهذه (الصبغة) إذا أحببت أحدًا بقيت عند بابه.

ثم إن قلبك وقد امتلأ بتلك المعرفة عن ربه، سيكون وراءه ظاهر، أنت مصبوغ لدرجة أن شكلك الظاهر وتصرفاتك في بدنك لن يريحك إلا ما صبغك عليه رب العالمين. مثال ذلك

---

[22]() تحفة المودود بأحكام المولود، ابن القيم (ص: 186).

هذه خصال الفطرة كلها المعروفة فهي من (صبغة الله) التي جعل رب العالمين راحة الإنسان وسعادته بحصولها، مثلا تحب الطهارة، تحب النظافة، هذه هي طبيعتك فأنت تشعر بشيء من السعادة بعد أن تنظف نفسك، وهذا ليس خاصا بك وحدك أو يخص اثنين أو ثلاثة أو أربعة أشخاص، وإنما يخص كل الناس؛ فهذه هي صبغتهم.

إن ربنا الذي خلقنا صبغنا بصبغة متى وافقنا فيها الأمر وصلنا إلى السعادة. لا بد أن نقتنع بأن الأوامر الشرعية ليست مجرد مقيدات لك، الأوامر الشرعية والعلوم القرآنية وكل ما جاء في الأخبار والأوامر من السنة النبوية إنما هي مادة لسعادتك، أنت ستسعد بها لأنك مصبوغ بصبغة، وكأن هذه (الصبغة) قد امتلأت فراغات إذا ما أدخلت فيها هذه المعلومات استقرت بها نفسك.

يقول ابن القيم: «**فظهرت فطْرَة الله على قُلُوب الحنفاء وأبدانهم**»[23]، «**ظهرت فطْرَة الله**» يعني هي (صبغة الله) «**على قُلُوب الحنفاء وأبدانهم**».

---

[23]() سورة البقرة: 136.

ما العلاقة بين (صبغة الله) وبين الطهارة والزّينة والسعادة؟

يقول القاسمي: «(صِبْغَةَ اللَّهِ) مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ مُنْتَصِبٌ مِن قَوْلِهِ: (آمَنَّا بِاللَّهِ)» يعني أول السياق: (**آمَنَّا بِاللَّهِ**)[24] مرتبط بقوله تعالى (صِبْغَةَ اللَّهِ)[25]، بمعنى أن الإيمان بالله وما يتبعه إنما هو (صبغة الله)، فكون أنك تؤمن بالله وتتبع أمر الله؛ فأنت توافق (صبغة الله) التي خُلقت عليها.

يقول: «**كَأَنَّهُ قِيلَ صَبَغَنا اللَّهُ صِبْغَةً. أيْ صَبَغَ قُلُوبَنا بِالهِدايَةِ والبَيانِ صِبْغَةً كامِلَةً لا تَرْتَفِعُ بِماءِ الشَّبَهِ، ولا تَغْلِبُ صِبْغَةُ غَيْرِهِ عَلَيْهِ**»[26] فهذه (صبغة الله)، وكنا قد اتفقنا حول الفرق بين (الصبغة) والطلاء، فتصور ثوبًا قد صبغته بلون أصفر -مما اشتُهر في صباغة الثياب- ثم بعد أن انصبغ تغمسه في الماء، فإن كان الصبغ جيدًا سيبقى ولن يذهب، وهذا ما عناه المفسر بقوله: «**صَبَغَنا اللَّهُ صِبْغَةً**».

---

[24] () سورة البقرة: ١٣٨.

[25] () محاسن التأويل للقاسمي، تفسير سورة البقرة الآية (138).

[26] () محاسن التأويل للقاسمي، تفسير سورة البقرة الآية (138).

لننتقل معه إلى مفهوم -إن شاء الله- نختم به ويكون واضحًا. يقول: «والصِّبْغَةُ كالصَّبْغِ، ما يُصْبَغُ بِهِ وتُلَوَّنُ بِهِ الثِّيابُ. ووُصِفَ الإيمانُ بِذَلِكَ؛ لِكَوْنِهِ تَطْهِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ مِن أوْضارِ الكُفْرِ، وحِلْيَةً تُزَيِّنُهم بِآثارِهِ الجَمِيلَةِ، ومُتَداخِلًا في قُلُوبِهِمْ. كَما أنَّ شَأْنَ الصَّبْغِ بِالنِّسْبَةِ إلى الثَّوْبِ كَذَلِكَ»[27]

لماذا سُمّي الإيمان وما في الوجدان من استعداد له أنه (صبغة)؟ ننظر للثلاثة أسباب التي ذكرها.

لماذا سُمّي الإيمان (صبغة)؟ ولماذا استعدادك للإيمان (صبغة)؟ الثوب عندما يُصبغ فهم بذلك إنما يزينونه، فكأنه يُقال: "الإيمان، والاستعداد له، حلية تزينك مثل صبغ الثوب بلون، حَلَّى الله بها الإنسان عن دونه من المخلوقات، وحَلَّى بها أهل الإيمان عن دونهم من بني آدم صبغهم بصبغة فصاروا في داخلهم مميزين جميلين؛ فإذن "صبغة الله جَمَّلتك"!

[27]() متن الحديث: «بينَما رجُلٌ يمشي بطريقٍ وجَد غُصْنَ شوكٍ على الطَّريقِ فأخَذه فشكَر اللهُ له فغفَر له» صحيح البخاري (2472)، صحيح مسلم (1914).

فكر معي، كيف أن حال أهل الإيمان من جهة عقيدتهم ومن جهة سلوكهم يجعلهم خير أهل الأرض؟ انظر في عقيدتهم حينما يعتقدون بأن ربنا حافظهم، وأنهم إذا قاموا بما أمرهم به -سبحانه وتعالى-؛ سيعطيهم -سبحانه وتعالى- ما وعدهم به، انظر الشجاعة الإيمانية عندما تكون قلوبهم مليئةً بالإيمان، وانظر للكرم الذي يحل بأهل الإيمان لأنهم يعلمون أن الله -عز وجل- يُخلف على المنفق نفقته، انظر هذه العقيدة كيف تُجمّلهم، وكيف تجعلهم جميلين عندما يمدون يدهم بالعطاء وقلوبهم معلقة بالله، إنهم ليسوا بالقوم الذين يفعلون الخير ويرمونه في البحر، وإنما هم القوم الذين إذا فعلوا الخير وضعوه في يد الله، فأهل الإيمان يتصورون أنهم يعطون العطاء، فيقع في يد الله قبل أن يقع في يدهم التي أمامهم، وأن الله يربيه لهم كما يربي أحدكم فلوه. فانظر كيف أن هذه العقيدة تُجمّلهم وتزينهم وتجعلهم مُقْدِمِين على الخيرات!

هؤلاء هم أهل الإيمان إذا وجدوا غصنًا به شوك في طريق المسلمين، ولا تكون هناك لا كاميرات ولا تغطية

إعلامية، فماذا سيفعلون؟! سَيَرَون غصن الشوك رزقًا سِيقَ لهم، فينزلون يزيلونه وهم يعرفون في عقيدتهم أن الله مطلع عليهم، وأن عبدًا من عباد الله أزاح غصن شوك عن طريق المسلمين فشكر الله له فغفر له فأدخله الجنة[28] فتصور كيف أن (صبغة الله) تزينهم، (صبغة الإيمان) تزينهم، فما أسعدهم بفرص الخير، وما أسعدهم بأوقات العبادات، ما أسعدهم بثلث الليل الأخير، وما أسعدهم بنفحات الإيمان، هم سعداء، سعداء، وهذا معنى أن «حِلْيَةً تُزَيِّنُهم بِآثارِهِ الجَمِيلَةِ».

وأيضا لاحظ كيف أن المفسر أتى بهذه العبارة أولًا قال: «تَطْهِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ» وهذا يعني أنهم مؤمنون. الصبغ -عادةً- للثوب يأتي بعد تنظيف الأوساخ التي علقت به ليكون الثوب نظيفًا، وهكذا الشأن لأهل الإيمان؛ فإن الله طهر أهل الإيمان فجعلهم مُطهَّرين، ثم جمّلهم وصبغهم بصبغة الإيمان.

من معاني أن دين الله والإيمان اسمه (صبغة) أنه متداخل في قلوب المؤمنين كتداخل اللون في نسيج الثوب، فأنت عندما تجد الثوب قد صُبغ وصار لونه أصفرَ لا تقدر عندها أن تميز بين النسيج وبين اللون، فعندما يقول رب العالمين أن الإيمان (صبغة) أهل الإيمان يعني أنه متداخل في قلوبهم لا ينفصل عنهم، فلا يأتي عليهم وقت يمكن أن يكونوا فيه على

---

[28]() المعجم الأوسط، الطبراني (5/257).

حال غير حال الإيمان سواء كان ذلك في ليلهم أو نهارهم، على فُرُشِهم أوفي خلائهم، في طعامهم وشرابهم، مع أهلهم ومع الناس؛ فهم مؤمنون.

ولذلك فهذه المفاهيم الثلاثة تؤكد أن (الصبغة) هي سر السعادة.

المفاهيم الثلاثة تؤكد أن (صبغة الله) هي سبب السعادة

لنتأمل مجددا هذه المفاهيم الثلاثة الأخيرة، ونرى كيف أنها تؤكد لك أن (الصبغة) هي سبب السعادة:

المفهوم الأول: أثر الطهارة في سعادة القلوب:

كم للطهارة من آثار في السعادة. قد يدور بالفؤاد ما يدور فيه -كما في أفئدة الناس جميعًا- من حسد أو حقد وما إلى ذلك، فيأتي الإيمان يطهره، وكلما زادت جرعة الإيمان لتصبح (صبغة) منك؛ زادت مسألة طهارة القلب وطرد هذه الأفكار. فما أسعد القلوب التي تبات غير حاقدة ولا حاسدة بسبب الإيمان.

المفهوم الثاني: سعادة القلوب بتزيّنها بزينة الإيمان:

كم ستكون القلوب سعيدةً وهي تتزين بزينة الإيمان؛ سيجعلها الله مذكورةً في السماء، ومذكورةً في الأرض، كما ورد في الحديث: «**ما مِن عبدٍ إلَّا له صِيتٌ في السَّماءِ فإذا كان صِيتُه في السَّماءِ حَسَنًا وُضِع في الأرضِ**»[29] فمن أسباب السعادة أن يجد الإنسان نفسه مقبولًا في الأرض عند أهل الخير بدون أن يكون قد أتعب نفسه في كثير من التزين، وإنما يُزينه رب العالمين بزينة الإيمان.

المفهوم الثالث: تداخل الإيمان في القلوب يُسبّب السعادة:

إن من مسبّبات السعادة أن يكون الإيمان متداخلًا في القلوب، ولتستخلص هذا المفهوم عليك أن تأتي بعكس الكلام حتى يمكنك تصور مدى ارتباط السعادة بهذا الموضوع، مثلا تُظهر في بيتك شيء وهناك شيء آخر، هنا تختبئ ولا تريد أحد أن ينظر وهناك تكون بغير الشخصية فكم يكون الشقاء في مثل هذه الحالة! الآن الإنسان عندما يكون الإيمان متداخلًا في فؤاد الإنسان سواء كان في بيته أو مع الناس أو في الخارج، مع القريب أو مع البعيد، في الخفاء أو في الظاهر، فهو شخص واحد حيثما كان كم سيكون سعيدًا! لأن تداخل الأفكار والشخصيات من أسباب الشقاء، والإيمان

29

عندما يداخل القلب في كل أحوال المرء سيكون من أسباب السعادة.

أرجو من الله أن نكون قد أضأنا على هذا الموضوع إضاءةً، و-إن شاء الله- بمزيد بحث منكم يزداد الأمر بيانًا -بإذن الله-.

جزاكم الله خيرًا.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.